



يؤكد الرئيس التركي، رجب طيب أردوغان، أن ما يجري في شمال سوريا هو أبعد من مسألة مواجهة التنظيمات الإرهابية وال الحرب على داعش، "لذلك نحن ملزمون بتوسيع نطاق العمليات العسكرية التركية هناك، لغمس خنجر في قلب الإرهاب". تحارب أنقرة، منذ سنوات، تنظيمات إرهابية عديدة، في مقدمتها حزب العمال الكردستاني في تركيا، ونسخته طبق الأصل حزب الاتحاد الديمقراطي، ثم تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وهو هي اليوم وجهاً لوجهاً مع مجموعات جبهة النصرة.

مشكلة تركيا هي ليست فقط في تناقض هذه المجموعات للسيطرة على مناطق حدودها الجنوبية، بل تعرّضها الدائم لاتهاماتٍ يوجهها الحلفاء أحياناً بشأن وجود علاقة تربطها ببعض هذه التنظيمات، كما فعلت واشنطن، عندما تحذّث مطولاً عن خدماتٍ تركية قدمت لتنظيم داعش. وهو هي اليوم تكرّر الأمر نفسه في موضوع جبهة النصرة في إدلب. تردد القيادة السياسية التركية أن هدف تهم من هذا النوع إضعاف الموقف التركي في سوريا ومحاصرتها لإخراجها من المعادلة هناك، لذلك هي تصر على عملية عسكرية جديدة في الممر الرابط بين منبج وعفرين والتمدد حتى شمال إدلب، إذا ما وجدت ضرورةً في ذلك، لسحب ورقة جبهة النصرة من يد واشنطن.

تختلط السياسة التركية السورية منذ أشهر وسط إعصار شمال سوريا. من نصب لأنقرة هذا الفخ، وكيف نجح في إبعادها عن نقاشات التغيير في سورية ومستقبل النظام في دمشق، وما هي حظوظها في الخروج من المستنقع بأقل الخسائر والأضرار؟ هل ستسمح تركيا للولايات المتحدة الأميركيّة بتسليم شمال إدلب لقوات حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي، كما فعلت في الرقة خلال عمليات طرد "داعش". ولكن بذرية القضاء على جبهة النصرة هناك هذه المرة؟ كيف ستكون ارتادات ذلك على مسار عملية "درع الفرات" ومستقبلها، ومطلب تطهير مناطق غرب النهر، وتحديداً منبج من

وجود وحدات قوات سوريا الديمقراطية التابعة لحزب الاتحادي الديمقراطي (الكردي) بزعامة صالح مسلم؟ هل أضرمت تركيا النار في سفن العودة، وباتت جاهزة لمغامرة عسكرية أكبر في منبج وعفرين وإدلب، وهي تعرف أن ثمنها هو توثير علاقاتها أكثر فأكثر مع واشنطن، والسقوط في فخ احتمال وجود التفاهم الأميركي الروسي على حسابها؟ هل قوات الجيش السوري الحر والمعارضة السورية المعتدلة جاهزة عسكرياً لدعم تركيا في خطوةٍ مصيريةٍ من هذا النوع، وإنماها ميدانياً بنجاح؟

تصر أنقرة على وجود خطة تستهدف أمنها القومي مباشرةً، عبر محاولة إنشاء كيان كردي في شمال سوريا، يجمع بين مناطق الحدود العراقية والواجهة الشمالية الغربية في سوريا، ويتضمن فتح نافذة كردية تطل على البحر الأبيض المتوسط. وتعتبر أيضاً أن واشنطن نجحت في تعطيل آخر تفاهمات لقاء أستانة الثلاثي الذي دعا إلى إنشاء منطقة تخفيض التوتر في إدلب، بفتح الطريق أمام بناء قوة محلية جديدة هناك، بإشراف جبهة النصرة وحلفائها المحليين، ورفع شعار ضرورة القضاء على هذا التنظيم الإرهابي، قبل طرح آلية خطة أمنية في المدينة.

وقد رفضت الولايات المتحدة إدراج حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي على لائحة التنظيمات الإرهابية التي أعلنتها تركيا، وقررت تجميد دعم قوى المعارضة السورية المعتدلة، وتمسّكت بإرسال شحنات السلاح والعتاد إلى حزب الاتحاد الديمقراطي (الكردي). وحملت الإدارة الأمريكية أنقرة مسؤولية الكشف عن خريطة وجود قواعدها العسكرية السورية وانتشارها في سوريا. ثم قطعت واشنطن طريق تقدم القوات التركية وتمددها في منبج وعفرين، وعمدت إلى تجميد تفاهمات أستانة الثلاثية عبر اتفاقيات بديلة مع روسيا في أكثر من بقعة جغرافية سوريا، وتراجعت فرص خطة منطقة تخفيض التوتر في إدلب وحظوظها، وهذه كلها مؤشراتٌ تعكس حقيقة الجفاء والتباعد واحتمالات القطيعة التركية الأمريكية في سوريا. كما أن واشنطن تحاول إلهاء أنقرة على أكثر من جبهة داخلية وخارجية، فهل بين أسباب التوتر الخليجي الخليجي محاولة إشعال أزمة إقليمية تشغل تركيا وإيران مثلاً، وتبعدهما عن ساحة العمليات السياسية والعسكرية الأمريكية في سوريا؟ وهل تحريك مجموعات جبهة النصرة في إدلب رسالة إلى تركيا، قبل غيرها، أنها ملزمة أولاً بتجاوز هذا العائق، بعد تخليها عن الالتزام بما أرادته واشنطن في الرقة ومحيطها؟ ثم هل الضغوط المحلية والإقليمية والدولية التي تتعرض لها المعارضة السورية، بهدف إعادة سوريا الثورة إلى المربع الأول قبل ست سنوات، وقبول تفاهم لا غالب ولا مغلوب، تعني أن المنظم الوحيد في الثورة السورية هو تركيا، ومن راهن عليها، وأن الثمن الأقل الواجب دفعه هو قبول مشروع تقسيم سوريا إلى كيانات وكتنونات عرقية ومنذهبية؟

تراهن حكومة حزب العدالة والتنمية في تركيا على رفض غالبية الشعب السوري، وحتى نظام الأسد نفسه، خطط ما يسمى المجلس التأسيسي للنظام الفيدرالي، ودعوات إلى إجراء استفتاءات وانتخابات فيدرالية، تمهد لتقسيمات إدارية وتنظيمية جديدة في سوريا فاقدة للشرعية، وجاءت عن طريق لعب ورقة الأمر الواقع، في تغييب متعمّد للشعب ومؤسساته، وتقول إن السوريين تعلموا الدرس العراقي، لكن ذلك وكما يبدو لن يكفيها.

على آلية جبهة سوريا ستحارب تركيا؟ في منبج أولاً، وبهدف إنجاز عملية درع الفرات أم في عفرين، في إطار خطة سيف الفرات، ومنع دمج الكانتونات الكردية بعضها البعض، وهي الخطة البديلة التي دفعت أنقرة إلى التحرك في إطار "سيف الفرات"، أم ستقرر التمدد والانتشار عسكرياً نحو إدلب بالتنسيق مع الروس، لسحب ورقة جبهة النصرة من يد واشنطن، وحليفها المحلي صالح مسلم؟

لأنه في تركيا يريد مغامرة عسكرية من هذا النوع، من دون التنسيق مع موسكو على الأقل. لكن هناك من يردد أيضاً أن ما ستفعله أنقرة إذا ما شعرت بأن التفاهمات الأميركية الروسية في شمال سوريا تقدم على حسابها هو التحرك باتجاه إيران، على الرغم من معرفتها بخطورة لعب هذه الورقة، وأن طهران ستحاول حتماً المساومة على حصة النظام، وإشراكه في عمليةٍ من هذا النوع.

قد ترضى تركيا بخطة مساوماتٍ تبعد شعب الكيان الكردي المستقل عن حدودها الجنوبية، وتفتح الطريق أمام تسوية سياسيةٍ تنهي الأزمة السورية التي تحملت أعباءها سنوات. لكن ما ستقوله وتفعله إيران مهم أيضاً، عندما تتأكد أن مشروعها من هذا النوع يستهدف مصالحها ونفوذها.

لماذا الحديث اليوم عن احتمال حدوث تفاهمات تركية إيرانية جديدة في سوريا؟ وهل قبول رئيس الأركان الإيراني دعوة نظيره التركي لبحث تحسين العلاقات العسكرية والأمنية، بعد 28 عاماً من التأخر، رسالةٌ إقليمية حول احتمال انبعاث الدخان الأبيض التركى الإيرانى من مقر قيادة الأركان التركية في أنقرة؟

في العلن، سلحت أميركا حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي بذرعة الرقة، لكنها في الخفاء هي تريده أن يكون جاهزاً لخوض معركة وجود في شمال إدلب، هذه المرة، للدفاع عن مشروع الكيان الكردي الموحد في شمال سوريا. جبهة النصرة هي التي ستتعاون معها لإنجاج المخطط، هذه المرة، تماماً كما فعلت "داعش" في الرقة. لا غرابة في أن يغير حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي اسمه بين ليلةٍ وضحاها، فيضيف غطاءً القوات الديمقراطية، وأن تحول جبهة النصرة إلى هيئة لتحرير الشام. الغرابة هي في أن لا نرى التنظيمين يدخلان في أي تصعيد عسكري أو سياسي ضد بعضهما، وأن يتوجهلا طريق الشام في حراكمهما.

قصة الأسد والثعلب والحمار معروفة، لكن التذكير بها ضروري هنا. دخل الحمار والثعلب في نقاشٍ حاد حول لون العشب، فقال الأول إنه بنى، بينما أصر الثاني على أنه أخضر. تطور النقاش، وكاد يتحول إلى شجارٍ، دفعهما إلى الاحتکام أمام ملك الغابة الذي أعلن، من دون تردد، أن الحمار على حق، وأمر بمعاقبة الثعلب. غضب الأخير من قرار الأسد، واعتراض متسللاً كيف يعاقبه على ذلك، وهو يعرف جيداً أنه ليس مخطئاً، فرد الأسد ساخراً: أنا لا أعقابك على مسألة لون العشب، فهو أخضر طبعاً، بل لأنك قبلت الدخول في نقاشٍ من هذا النوع مع الحمار.

تحاول واشنطن، بكل الطرق، ترك تركيا بين خيارين، أحلاهما مر في سوريا: توريطها أكثر فأكثر في المستنقع السوري، أو إجبارها على الخروج من المشهد بملء إرادتها، بسبب حجم التهديدات والمخاطر. تقول أنقرة بصوت مرتفع إنها لن ترضخ. لن يراهن الخبراء الأتراك حتماً على الفرج القادم من الحرب في شبه الجزيرة الكورية، أو التوتر الهندي الصيني.